الإنجيليُّون والنهضة العلمية

القس رفعت فكري سعيد

رئيس مجلس الحوار والعلاقات المسكونية بسنودس النيل الإنجيلي

احتدم الصراع في أوروبا خلال القرنين السادس عشر والسابع عشر بين اللاهوت والفلسفة، وكان الصراع بين الأصوليَّة المسيحيَّة –التي تلتزم حرفية النص الديني وترفض إعمال العقل– وبين العَلمَانية –التي تلتزم تأويل النص الديني في ضوء إعمال العقل. وحيث إن الأصولية الدينية شكلٌ من أشكال الدوجماطيقية التي تتوهم امتلاك الحقيقة المطلقة، فيمكن القول بأن الصراع كان بين الدوجماطيقية والعلمانية، وجاءت حركة الإصلاح الديني في القرن السادس عشر، وكانت مواكبةً للتقدم العلمي.

فبينما كانت الكنائس الأرثوذكسية في الشرق في عُزلة عن العالم المسيحيّ في أوروبا؛ فقد كانت ترزح تحت نير الحكم العثماني، لذا انحصر نشاط الكنيسة في الشرق إلى حدٍّ كبير في التعامل مع واقعها، ولم يكن لها دور في التقدم العلمي، وانشغلت بموضوعات تختلف عماَّ كان يشغل بال أوروبا، سواء من جهة القضايا التي أثارتها حركة الإصلاح أو في التفاعل مع النهضة العلمية، كالحديث عن مركزية الشمس، أو حتى الرجوع للكتاب المقدس في لغاته الأصلية. أما الكنيسة الكاثوليكية في جنوب أوروبا، فبعد الحكم الجائر ضد جاليليو، أوصدت الأبواب أمام أيّ تقدمٍ علميٍّ في دائرتها، وبذلك جاء عبءُ التقدم العلمي وتشجيعه لقرون على عاتق الإنجيليين؛ ففي الوقت الذي تم فيه كتم أنفاس جاليليو، كان العَالِم الكبير "كبلر" صديق جاليليو وشريكه في البحث العلمي، يعيش في جو الحركة الإنجيلية، وبذلك فإنها حقيقة ثابتة أن الإنجيليين هم الذين احتضنوا التقدم العلمي لقرون، كما أنهم هم الذين قدموا للعالم الكتاب المقدس بمختلف لغاته ولهجاته مع جوانب كثيرة أخرى.

لم تتخذ البروتستانتيةُ موقفًا مساندًا للعلماء والاختراعات فقط، بل هناك الكثير من الدراسات التي تشير إلى أن البروتستانتية أرست نمطًا جديدًا من التفكير، وأضافت تفسيرات جديدة للكتاب المقدس، كما شجعت العلماء، على التفكير بطريقة علمية، ومن ثم كان للإصلاح الإنجيلي تأثيره الإيجابي على التقدم العلمي.

كنيسة القرون الوسطى ومحاربة العلم والعلماء!

الموضوعية تحتم علينا أن نقول إن كنيسة القرون الوسطى لم تكن على وفاق مع النظريات العلمية، ورأت أنها تتعارض مع تفسيرها وفهمها لنصوص الكتاب المقدس؛ فمن المعروف أن أوروبا في العصور الوسطى، كانت تعيش حالةً من الظلام الفكري الدامس، وكانت واقعةً تحت سلطة كنسية طاغية تتعقب المفكرين أينما وُجدوا، وقد ظل الصراع هناك محتدمًا بين

العلم والدين، وبين المفكرين واللاهوتيين قرونًا عديدة، ولقد حرَّمت كنيسة القرون الوسطى على الناس التفكير الحر، حتى قيل إنها أحرقت نحو 1300 شخص بتهمة الهرطقة.

إنّ رجال الكنيسة كانوا يزعمون أنّ الكتاب المقدس يتضمَّنُ كل أنواع العلوم التي يحتاجها الناس، سواء أكانت علوم دين أم دُنيا، وأنَّ أساس كُلَّ علمٍ، عندهم، هو الكتاب المقدّس وتقاليد الكنيسة، وأنَّ الله لم يقصُرْ تعليمنا بالوحي على الهداية إلى الدين فقط، بل علَّمنا بالوحي كلَّ ما أراد أنْ نعلَمه مِن الكون، فالكتاب المقدّس يحتوي من المعرفة على المقدار الذي قُدِّر للبشر أن ينالوه، فجميع ما جاء في الكتب السماوية من وصف السماء والأرض، وما فيها، وتاريخ الأمم ممّا يجب تسليمُه مهما عارضَ العقلَ، أو خالفَ شاهِدَ الحسّ، فعلى الناس أن يُؤمنوا به أولاً، ثم يجتهدوا ثانيًا في حمل أنفسهم على فهمه.

جاء العالم "جيوردانو برونو" بفرضيّةٍ علميّةٍ وصفَ من خلالها الكون بأنه "لا نهائي"، وأنّ هنالك أشكالًا من الحياة خارج الكرة الأرضية مما أثار غضب رجال الكنيسة، الذين كانوا يعتقدون بأن الأرضَ منبسطةٌ، وبناءً على ذلك فقد وجَّهت الكنيسة تهمة (الهرطقة) إلى "جيوردانو برونو"، وقامت بمحاكمته لمدّةٍ قاربت الثماني سنوات، تمَّ خلالها انتزاعُ الاعترافات من "برونو" عن طريق التعذيب، وحُكِمَ عليه بالموت لأنه "متعنّتٌ مُصِرٌّ على "هرطقته"...". وكان قد جاهد ليشرح أنّ أفكاره ليست خطأً، دون جدوى، وتم حرقُه حيًّا في "كامبو دي فيوري"، وقد كمّموه قبل أن يأخذوه إلى المحرقة، لتفادي أن تتسبّبَ عباراته في قلقلة معتقدات الجمهور، الذي حضر لمشاهدة المحرقة، وقد تم إضفاء رتبة "كبير علماء الكنيسة" عام 1930م على "الكاردينال بلّلارمين" الذي تولّى إدانة "برونو" رسميًّا.

والصراع بين الكتاب المقدس والعلم الحديث في الغرب كان صراعًا محتدمًا بين مرجعية النصوص وقوة ودقة الملاحظة والمشاهدة والتجربة، وأولى لقطات هذا الصراع هو نظرية دوران الأرض، وأول أبطاله هو كوبرنيكوس، والذي قالت عنه الكنيسة إنه نصاب يحاول أن يبين أن الأرض هي التي تدور وليس السماوات أو الشمس أو القمر، وكان مصدر هذه التهمة هو الاستناد إلى بعض آيات الكتاب المقدس، مثل الآية التي تخبرنا بأن يشوع أمر الشمس وليس الأرض أن تقف في مكانها، والآية في (مزمور 93: 1) التي تقول: "أيضًا تثبتت المسكونة لا تتزعزع"، أما المصدر الخفي والحقيقي هو خوف القساوسة والكهنة، وغضبهم من أن إقصاء كوكب الأرض عن وضعه المركزي سيقصي الإنسان هو الآخر عن وضعه المميز في الكون.

ويمكننا القول إن عام 1543 هو بداية الصراع بين الكنيسة والنظريات العلمية، وأيضًا هو بداية بزوغ العلمانية، فلقد اتسع استخدام اللفظ عندما استقل الإمبراطور عن بابا روما، وتجسَّد الانفصال بين ما هو روحاني وما هو علماني في مؤسسات، فانتقلت بعض المسؤوليات من السلطة الكنسية إلى السلطة السياسية، ويُسمَّى هذا الانتقال بـ"العلمانية". بيد أن هذا الانتقال كان في جوهره تعبيرًا عن نقلة فكرية؛ ففي هذا العام صدر كتاب من تأليف نيقولا كوبرنيكوس بعنوان "في دورات الأفلاك السماوية"، وهذا التاريخ يمكن أن يُعتَبَر حدًّا فاصلًا بين نهاية العصر الوسيط وبداية العصر الحديث،

فبفضل كوبرنيكوس لم يعد الإنسان مركزًا للكون، وتوقف الكون عن الدوران حول الإنسان، ولم تكن تنحية الأرض عن مركز العالم بالأمر الميسور، فقد كانت واردةً عند فيثاغورس؛ حيث ذهب إلى أن مركز العالم يجب أن يكون مضيئًا بذاته، ويجب أن يكون ساكنًا، ولهذا فإن الأرض ليست مركز العالم فهي مظلمة، وفيها نقائص كثيرة. بيد أن فيثاغورس كان يحذر تلاميذه من إعلان هذه النظرية، وقد كان فيثاغورس محقًّا في هذا التحذير، فقد أُحرقت الدار التي كان يجتمع فيها الفيثاغوريون، وقيل إن فيثاغورس كان متغيبًا عن الدار يوم الحريق، ويبدو أن كوبرنيكوس كان على وعي بالآثار الخطيرة المترتبة على نظرية دوران الأرض التي دعا إليها فيثاغورس، والتي كان يود إخفاءَها عن الجمهور. وأهدى كوبرنيكوس كتابه للبابا بولس الثالث، وقد جاء في الإهداء أن لديه قناعة قوية بأن ثمة أشخاصًا سيطالبون بإعدامه هو وأفكاره، بسبب ما كتبه عن دوران الأفلاك السماوية، وعن حركة الأرض، وأنه لا يكترث لآراء الآخرين، كما أنه على دراية بأن أفكار الفيلسوف لا تذعن لأحكام الدهماء، لأن غايته البحث عن الحقيقة، ومع ذلك فإنه يرى ضرورة الإفلات من قبضة الآراء المناقضة للعدالة والحقيقة، ولهذا كان عليه أن يختار بين الإعلان عن نظريته التي قد تُواجَه بالسخف من قِبل الذين قد اعتقدوا في ثبات الأرض لعدة قرون، وبين الالتزام بالصمت مثلما فعل فيثاغورس، وقد اختار الإعلان عن نظريته بناءً على ضغوط من بعض الأساقفة، هذا مع ملاحظة أن نظريته عن حركة الأرض كان قد احتفظ بسريتها لمدة ستة وثلاثين عامًا، وبالفعل نشر كوبرنيكوس نظريته، وقد جاءته نسخة مطبوعة من كتابه وهو على فراش الموت في 24 مايو 1543، وفي 5 مارس 1616 قرر ديوان الفهرست (محكمة التفتيش) تحريم كتاب كوبرنيكوس.

وقد لاقت نظرية كوبرنيكوس محاربةً شديدةً من قِبل رجال الكنيسة؛ لأن فيها كما يقولون "مخالفة لما جاء في الكتب المقدسة"، ومن ذلك ما كتبه "فروماندوس" وهو أحد رجال الدين في مقالته التي سماها "أرسطارخس"؛ حيث بدأ أول صفحة منها بلعنة كوبرنيكوس، ثم أعلن "أن التنزيل يقاوم كوبرنيكوس وأنصاره". ولكي يبرهن على فساد نظرية كوبرنيكوس وأنها ضربٌ من ضروب الإلحاد، رجع إلى النصوص المقدسة التي تتحدث عن شروق الشمس وغروبها وثبات الأرض، حيث استند إلى نصٍّ من التوراة جاء فيه: "أن الأرض ثابتة إلى الأبد"، وأيضًا ماورد في الأصحاح الأول من سفر الجامعة: "ما الفائدة للإنسان من كل تعبه الذي يتعبه تحت الشمس، دور يمضي ودور يجيء والأرض قائمة إلى الأبد، والشمس تشرق، والشمس تغرب، وتسرع إلى موضعها حيث تشرق".

وفي عام 1609 صنع الإيطالي الشهير جاليليو التلسكوب، فرأى جبال القمر وأقمار المشترى الأربعة وعين حركتها، وأضاف أربعة أجرام سماوية أخرى فوق السبعة التي آمن بها القدماء، فحدث الانزعاج والرفض؛ لأن هذا لا يستقيم مع إشارات الكتاب المقدس، فالأجرام السبعة هي الشمعدانات السبعة التي تحدث عنها سفر الرؤيا، وكانت نتيجة هذا الهجوم ترقية قسيس دومنيكاني بسبب موعظة ألقاها حول نص الكتاب المقدس القائل: "وأنتم يا سكان الجليل لماذا تقفون محملقين في السماء"، ذهب منها إلى أن الهندسة رجسٌ من الشيطان، وأنه ينبغي استبعاد علماء الرياضة باعتبارهم مؤلفي كل الهرطقات.

وفي مارس من نفس العام، نشر جاليليو كتابًا بعنوان "رسول من النجوم"، أعلن فيه انحيازه لنظرية كوبرنيكوس، وفي عام 1613 نشر كتابًا بعنوان "رسائل عن كلف الشمس" فحرصت السلطة الدينية عل قراءته، وانتهت إلى أن الكتاب به آراء جديدة مخالفة للتفسير التقليدي لنصوص الإنجيل، ومن ثم بدأ الصراع بين جاليليو والسلطة الدينية، فراح جاليليو يبحث عن أدلة من الإنجيل، ومع ذلك أعلن المجمع المقدس أن كوبرنيكوس مهرطق، وأصدر البابا بولس الخامس أمرًا إلى جاليليو، بالامتناع عن تعليم نظريات كوبرنيكوس أو الدفاع عنها، فوعد بالامتناع، ولكنه نشر في عام 1632 كتابه المشهور "حوار حول نظامين أساسيين للعالم"، انحاز فيه لنظرية كوبرنيكوس، وفند نظرية بطليموس.

ونظرًا لأن جاليليو أثبت أن عدد الكواكب يزيد عن سبعة –على خلاف الاعتقاد الكنسي السائد آنذاك– ثارت ثائرةُ الكنيسة وأعلنت هرطقة هذا العالِم، مُستندةً إلى أنَّ أقواله تخالف ما ورد في الكتاب المقدس، وتمَّ تحويل جاليليو إلى محكمة التفتيش في روما، "وأجبرته لجنة المحكمة على الرجوع في رأيه بأن عرضتْ عليه أولًا وسائل التعذيب المستخدَمة إذا ما أصرَّ على رأيه، وكانت أعمالُ "جاليليو" قد أُدينت ووُضِعت في كشف الممنوعات منذ عام 1616م". وأمضى جاليليو بقية حياته مُعتقَلًا في منزله، إذ أنَّ شهرته العالمية قد سمحت له بتفادي العواقب الوخيمة، فكانت عمليّةُ اعتقاله في منزله هي الوسيلة الوحيدة لتفادي عمليات التعذيب الرسمية التي تمارسها اللجنة، خصوصًا بعد أن صدر الحكم عن محكمة التفتيش بسجنه وتعذيبه بشدّةٍ، مما اضطرّه للتراجع عن نظرياته العلمية (التي أثبت العلمُ الحديث صحَّتها تمامًا)، وأعلن أمام البابا "أربان الثامن" تراجعه وتوبته عمَّا قاله، وقال في إعلانه هذا: "أنا جاليليو، وفي السبعين من عمري، سجينٌ جاثٍ على ركبتيَّ، وبحضور فخامتك، وأمامي الكتاب المقدس، الذي ألمسُه الآن بيدي، أعلن أني لا أشايع، بل ألعنُ وأحتقرُ خطأ القول وهرطقة الاعتقاد بأن الأرض تدور". ويُقال إنه بعد التوقيع ضرب الأرض برجله وقال: "ومع ذلك فهي تدور".

كما دخل علماء الجيولوجيا والأحياء في جدل عنيف مع رجال اللاهوت حول قصة سفينة نوح، والتي استنبط منها اللاهوتيون أن كل الحيوانات الموجودة حاليًا تنتمي إلى أنواع تمثلت في الحياة في سفينة نوح، وبذلك فالأنواع ثابتة لا يطرأ عليها التغيير، وكان أي شك في ذلك خاصة من علماء البيولوجيا المؤمنين بالتطور كفيلًا بإلصاق تهمة الكفر. وجاء اكتشاف أمريكا ليحير اللاهوتيين، فأمريكا كانت أبعد ما تكون عن الجبل الذي وُجِدت عليه سفينة نوح، ومع ذلك فقد عُثِر فيها على حيوانات كثيرة ليس لها وجود في الأماكن التي تحتل مركزًا وسطًا، فكيف استطاعت هذه الحيوانات السفر إلى هذه الأماكن النائية؟

وجاء الصراع مع علم الطب والذي كان أكثر احتدامًا وعنفًا؛ ففلسفة المرض عند رجال الدين القدامى هو أنه عقاب من الله. وقد ذهب البعض إلى أن جميع أمراض المسيحيين ترجع إلى الشياطين، وكان للقديسين منزلةٌ كبيرةٌ في جلب الشفاء، فعلى سبيل المثال نجد أن الناس ظلوا لقرون كثيرة يعتقدون في قدرة عظام القديسة روزاليا المحفوظة في باليرمو بإيطاليا على شفاء الأمراض، ولكن عندما قام عالم تشريح دنيوي بفحص هذه العظام اكتشف أنها بقايا عظام ماعز!

ولحسن الحظ، أفلت هذا العالمُ من الحظر الذي كان قد فُرِض على علم التشريح، والذي اعتبره القساوسة مانعًا ضد بعث الأجسام من الموت. وامتدت الخزعبلات من الأمراض الجسميَّة إلى الأمراض النفسيَّة، والتي ارتبطت بالسحر اعتمادًا على الآية في (خروج 22: 18) التي تقول: "ولا تدع ساحرة تعيش". ومن الأشياء الطريفة في تاريخ هذه المحظورات، أن القساوسة وقفوا ضد تلقيح الجدري لدرجة قيام قسيس أنجليكاني بنشر موعظة جاء فيها أن قروح أيوب ترجع دون شك إلى أن الشيطان قام بتلقيحه. واشترك كثير من قساوسة اسكتلندا في إعداد بيان جاء فيه: أن التلقيح يُعتَبَر محاولةً لإصابة حُكم الله وتقديره بالارتباك. وقال أحد القساوسة عن مرض الجدري: "إذا كنا قد ابتُلينا بمرض الجدري، فإن ذلك يرجع إلى ما مارسناه من عربدة في الشتاء الماضي، فقد انغمسنا في شهوات الجسد لدرجة أثارت غضب الله!".

وحتى التخدير واكتشافه، الذي أنقذ البشرية من الألم، وأتاح الفرصة لأعقد العمليات الجراحية أن تُجرَى في أمانٍ كاملٍ، حتى هذا الاكتشاف لم ينجُ من تدخل رجال الدين الذين اعترضوا حين حاول أحد الأطباء سنة 1847 أن يستخدم التخدير في حالات الولادة، وذكروا الآية 16 في الإصحاح الثالث من سفر التكوين والتي تقول: "بالوجع تلدين أولادًا".

وأعلن البعض أن الأمراض في حقيقتها، ما هي إلا أعمال خبيثة للشياطين، وإنها العفاريت، هي التي تسبب المجاعات، والبوار، والعقم، والأوبئة، وهي تحوم وتنتقل متخفيةً في السحاب، وتنجذب نحو الدماء والبخور التي يقدمها لهم الوثنيون الذين يعتبرون العفاريت آلهة، وأن تلك الأرواح الشريرة تتسبب في جميع أمراض المسيحيين. ثم بأمر من البابا بيوس الخامس أصبح لزامًا على جميع الأطباء الاستعانة بما أسماه "طبيب الروح"، على أساس أن الاعتلال البدني، ينشأ على الأرجح كنتيجة لارتكاب المعاصي. وباستقرار الأمر على أن الشياطين هي مصدر الأمراض، أصبح من الطبيعي أن يكون العلاج عن طريق طردها باستخدام وسائل التراث المقدس. وتبعًا لذلك، انهالت التبرعات على الكنائس والأديرة، خاصة ما اشتهر منها بامتلاكه لأسباب الشفاء. وفي الواقع، أصبحت الكنيسة راعيةً ليس فقط لأرواح المسيحيين، بل أيضًا لصحة أبدانهم.

وأقرت الكنيسة بأن الأوبئة مثل الجدري والكوليرا، إنما هي عقاب من السماء، وبالتالي أصبح التدخل البشري للوقاية منها بالتطعيم عملًا مرفوضًا بشدة. وكانت وجهة نظر الكنيسة أن الجدري "عقاب إلهي على خطايا البشر، وأن أية محاولة للتدخل لمنعه، لن تتسبب إلا في زيادة نقمة الله". وعلى ذلك ألقيت قنبلة مشتعلة داخل منزل أحد المواطنين، بسبب إيوائه للدكتور/ بويلستون (1766- 1679) أحد رواد التطعيم ضد الجدري، هذا بالإضافة إلى انطلاق سيل من الخطب المنبرية الشاجبة لأنصار التطعيم. لكن الحق كان واضحًا وقويًّا، فبالتطعيم عاش الناس، وبدونه زادت الوفيات، وانتهى الأمر أخيرًا، بقبول الكنيسة على مضض بالتطعيم وإن كانت معارضتها لم تختفِ تمامًا.

كانت معارضة الكنيسة للتشريح، من العقبات الكبرى في سبيل التطور العلمي للطب، وقد وصفت الكنيسة الذين يمارسون التشريح بـ"الجزارين". وكانت هناك فكرة مرعبة سائدة مفادها أن العبث بأجساد الموتى قد يُجازى عليه بأهوال فوق حد التصور يوم البعث. وأضافت الكنيسة بقولها: "إن الكنيسة تمقت إسالة الدماء"، وهي مقولة جميلة حقًّا في حد

ذاتها، ولكنها تبدو في مفارقة صارخة عند مقارنتها بالسعادة البالغة للكنيسة التي قتلت وأحرقت الآلاف ممن اتهمتهم بالسحر والزندقة. مما يوضح أنها في الحقيقة لم يكن لديها مانع من إسالة الدماء، طالما كان ذلك في سبيل مصلحتها المقدسة.

في حوالي عام 1770، حدثت ظاهرةٌ غاية في الغرابة في أجزاء كثيرة من أوروبا، حيث اصطبغت المياه بلون الدم الأحمر، وأرسلت تقارير عديدة إلى الأكاديمية الملكية للعلوم تفيد أن المياه تحولت إلى دماء. وعلى الفور رأى رجال الكنيسة أن ذلك يشير إلى غضب الله الشديد. وعندما امتدت الظاهرة إلى السويد، قام أحد علماء الطبيعة البارزين وهو "ليناوس" بفحص الظاهرة؛ حيث تبين له أن تحول لون المياه كان بسبب وجود كميات غزيرة من حشرة دقيقة حمراء اللون. وفور وصول تلك المعلومة إلى الأسقف، رفضها بشدة واعتبرها من الأفكار الشيطانية، وأعلن أن احمرار المياه لا يمكن أن يكون لأسباب لها أية علاقة بالطبيعة. ولم يكن ليناوس من الغفلة لينسى ما حدث لجاليليو من قبله، فتراجع عن رأيه العلمي في النهاية معلنًا أن حقيقة الأمر أبعد من قدرته على الفهم.

كما روج رجال اللاهوت وكنيسة العصور الوسطى لفكرة أن الأجرام السماوية، والمعروفة باسم المذنبات، ما هي إلا كرات من اللهب يقذف بها الله معبِّرًا عن غضبه على العالم الشرير. وقد عبر رجال الكنيسة عن المغزى الأخلاقي لذلك، بتصويرهم لأحد تلك الأجرام مرسلًا من عند الإله، إلى قاضٍ يجلس في قاعة المحكمة، واضعًا سيف القصاص على منضدة تفصل بينه وبين المتهمين. كما أعلن آخرون عن نبذ الكنيسة لكل من تُسوِّل له نفسه النظر إلى تلك الأجرام –التي تتضمَّن إشاراتٍ إلهيةً– وشبَّهوهم ببهائم تقف مشدوهةً على أبواب الحظائر. وحتى قرب نهاية القرن السابع عشر، كان على أساتذة الفلك أن يُقسِموا قَسمًا يمنعهم من تدريس تلك الأجرام، باعتبارها أجسامًا سماويةً تخضع لقوانين الطبيعة. وعلى أية حال، في النهاية لا يمكن كبح جماح العلم إلى الأبد، فقد قام العالم "هاللي"، برصد مسار مذنب "خطير" وتنبأ بأنه سيعود للظهور بعد 76 عامًا كما حدَّد بدقة متناهية موعد عودته مرة أخرى إلى الأرض، وكانت تنبؤاته مذهلة، وتكاد تكون خرافية في ذلك الوقت، إلا أنه بعد مرور 76 عامًا، وبعد وفاة كلٍّ من هاللي ونيوتن بوقت طويل، عاد مذنب هاللي للظهور، كما توقع تمامًا.

من كل ما سبق يتبين لنا بما لا يدع مجالًا للشك أن صرامة التشدد الأصولي في كل المعتقدات لم تكن يومًا على وفاق مع الاكتشافات العلميَّة. أما من الناحية التاريخية، فلعل "الأصولية المسيحية"، هي التي خاضت أطول المعارك وأشدها مرارة ضد العلم، لقد حكمت الكنيسة المسيحية أوروبا بيد من حديد على مدار ألف عام قبل عصر النهضة، كان التعليم العلمي المنهجي مستحيلًا آنذاك، خاصةً في ظل ما اتسم به النظام العام من عدم السماحة، والتحيز، والتحامل المسبق على أي رأي معارض. وفي ظل ارتياب الكنيسة الشديد في أية محاولة حرة للتفكير، تم قمع كل وسائل التعليم، ما لم تكن متفقة تمامًا مع أهوائها وخطابها الديني، لقد أصدرت منابر المحاكم الدينية عشرات الآلاف من الأحكام بالتعذيب حتى الموت، على المشتَبَه فيهم بالسحر والزندقة؛ فكان يتم ربط المتهمين إلى الخيول لتمزيق أجسادهم، وتُنزع أحشاؤهم،

ويُشنَقون، أو يُحرقون وهم مشدودون إلى الخوازيق. حتى الموتى لم يسلموا من التعسف والعنف؛ ففي واقعة مشهورة، خلص رئيس الأساقفة جيمس أوشر (1581– 1656)، رئيس أساقفة كنائس أيرلندا، من دراسته للإنجيل، إلى أن بداية خلق العالم كانت في الساعة التاسعة من صباح يوم الأحد الموافق 23 أكتوبر عام 4004 قبل الميلاد. هذا بالرغم من أن وايكلف (1328– 1384)، كان قد قدم الدليل المبني على الحفريات الجيولوجية، على أن عمر الأرض يقدر ببضعة مئات الآلاف من السنين على أقل تقدير. على أي حال، لم تتحمل الكنيسة تلك المفارقة، فيما اعتبرته نوعًا من الوقاحة، وعليه، فقد أصدرت أوامرها باستخراج رفات وايكلف، وتفتيت ما تبقى من عظامه، وحرقها، وإلقائها في مياه الأنهار والبحار حتى لا تظل الأرض ملوثة بزندقته وجراثيم أفكاره وتشكُّكاته.

كذلك نظرت الأصولية المسيحية إلى علم الجيولوجيا، واعتبرته أحد أدوات الشيطان، ووسائله المدمرة، فعلاوةً على ما أظهرته الجيولوجيا من خطأ تأكيد رئيس الأساقفة أوشر بشأن حساباته المتعلقة بعمر الأرض، فإنها أيضًا، أثبتت استحالة خلق الكون كله في ستة أيام، وقد نبذت الأصولية، علم الجيولوجيا واعتبرته فسوقًا، ووصفته بـ"الفن الأسود"، كما أعلنت، أن الجيولوجيين خونة، وتمشيًا مع هذه الأفكار قام البابا بيوس التاسع، بمنع إقامة مؤتمر إيطاليا العلمي، الذي كان من المزمع عقده في بولونيا عام 1850.

في العصور الوسطى ساد الاعتقاد بأن العواصف من عمل الشيطان، وحظيت تلك الأفكار بدعم من السلطات الكنسية العليا. وفي مواجهة تلك القوى غير العادية للرياح، أقيمت الطقوس والشعائر لطرد الأرواح الشريرة، ولعل من أكثر تلك الطقوس انتشارًا، كانت الممارسات السابقة للبابا جريجوري الثالث عشر؛ حيث تمثلت أساليب طرد الأرواح في إطلاق الأناشيد ودق أجراس الكنائس أثناء العواصف. لكن في القرن الخامس عشر، نشأ مفهوم مأساوي، مفاده أن لبعض النساء قدرة على تسخير القوى الشيطانية، وتوجيهها لاستحداث الزوابع الدوامية، والجليد، والفيضانات، وغير ذلك. وفي السابع من ديسمبر، عام 1484 أصدر البابا إنوسنت الثامن مرسومًا باباويًّا مستلهمًا من النص المقدس: "لا تدع ساحرة تعيش" سفر الخروج 22: 18، حث فيه قساوسة ألمانيا، للتعرف على المشعوذات، والساحرات، ممن يتسببن في إحداث الزوابع الشريرة، التي تدمر الحدائق والحقول والمزارع. كانت النتيجة أن آلاف السيدات وجدن أنفسهن مُقيَّداتٍ إلى آلات التعذيب، يصاحبهن في رعبٍ، أقربُ الناس إليهن، ولا يتمنين شيئًا غير الموت لإنقاذهن من المعاناة والآلام.

نادى الخطاب الكنسي بأن الصواعق تحدث كنتيجة لخمس خطايا: عدم التوبة، والشك، وإهمال إصلاح الكنائس، والتزوير في دفع العشور، واضطهاد المرؤوسين والخدم. وكان البابوات يستفيضون في الدفاع عن هذا الرأي، مُطلقين على الصواعق اسم "إصبع الله". وفي عام 1752، أطلق بنيامين فرانكلين طائرته الورقية المشهورة، أثناء إحدى العواصف المصحوبة بالبرق، ليكتشف الطبيعة الكهربائية للصواعق. وتبع ذلك مباشرة استخدام القضبان المعروفة بموانع الصواعق، والقادرة على الحماية المؤكدة من أي عاصفة برقية. في البداية، رفضت الكنيسة التسليم بوجودها، ولكن مع ازدياد استعمالها، والتأكد من جدواها لجأت الكنيسة إلى استخدام أسلوب مغاير في المناورة؛ فعندما وقع زلزال كبير في ولاية

ماساشوستس بأمريكا عام 1755، زعموا أنه حدث بسبب انتشار استعمال موانع الصواعق في مدينة بوسطن. واشتعلت خطب الوعاظ ضد هؤلاء الذين يحاولون التدخل في المشيئة الإلهية والحد من المدفعية الإلهية (الصواعق). كان من الممكن أن يستمر الجدل والصراع لمدد طويلة حول هذا الموضوع، لولا أن الكنائس التي لم تستعمل مانعات الصواعق، كثيرًا ما دُمِّرت بفعل الصواعق؛ ففي ألمانيا على سبيل المثال، تم تدمير حوالي 400 برج كنيسة، وتوفي 120 من قارعي الأجراس بفعل الصواعق في الفترة من 1750 إلى 1783، في المقابل صمد بيت للدعارة –بما تم تركيبه فيه من مانع للصواعق– ضد أسوأ العواصف والزوابع، كما لم تُصب بسوء أي من الكنائس القليلة التي كانت قد قامت بتركيب الموانع بها وبأبراجها. بناءً على هذا، وافقت السلطاتُ المقدسة، بكل أسى ومرارة، على استعمال موانع الصواعق، ولم تأتِ نهاية القرن، إلا وكانت معظم الكنائس قد استعملتها.

عندما تقدم ايمانويل كانط، بنظرية وجود سديمات بالفضاء، بالإضافة إلى النجوم، تعالت الأصوات في العالم العقائدي، اعتراضًا على ما اعتبروه زندقة؛ فقد ارتأت الأصولية المسيحية أن عدم وجود نص صريح، في الكتب المقدسة عن السديمات ينفي احتمال وجودها. ولقد غمرت السعادة النسبية بال هؤلاء، عندما أظهرت التليسكوبات المحسَّنة في ذلك الوقت، أن بعض المناطق في تلك السديمات، يمكن إيعازه إلى وجود نجوم، لكن مع التطور العلمي وابتكار الأجهزة الأحدث، مثل أجهزة التحليل الطيفي، اتضح بما لا يدع مجالًا للشك، أن الضوء القادم من السديمات مصدره الغازات فقط، وعلى ذلك اضطرت الأصولية إلى التراجع.

إن قائمة الممارسات التي اتبعتها مسيحية القرون الوسطى لامتهان الروح الإنسانية وتعذيبها وقمع التساؤلات العلمية، لهي أطول بكثير من الأمثلة القليلة المذكورة أعلاه، هذا فضلًا عن المعركة الكبيرة، التي دارت بين الأصولية المسيحية والعلم، والتي أعقبت نشر كتاب داروين عن "نشأة الأنواع" في عام 1859، وهي المعركة التي فاقت كل ما سبقها من معارك، بما في ذلك معركة جاليليو؛ فلقد كان أصعب كثيرًا على الإنسان، أن يكون علميًّا تجاه الأمور المتعلقة بالحياة نفسها، من إقراره بالعلم المتعلق بالصخور المتساقطة أو الأجسام السماوية، فعندما علمت زوجة أسقف كنيسة ووريستر بأمر نظرية داروين، عقبت بقولها: "يا إلهي، أينحدر أصل الإنسان من القردة العليا؟ دعونا نأمل ألا يكون هذا صحيحًا، أما إذا كان، فدعونا نصلي كي لا يصبح الأمر معلومًا للجميع".

لماذا يا ترى اتخذت الكنيسة هذا الموقف المتشدد والمعادي بكل قسوة لرجال حملوا أفكارًا جديدة مثل بيكون، ووايكلف، وبرونو، وجاليليو، وعشرات الآلاف غيرهم؟ لعله من الممكن الوصول إلى سبب هذا التعنت البالغ من خلال الآتي:

- كان النظام الاجتماعي العام، قائمًا على الالتزام الحرفي بالقواعد الموضوعة بواسطة الكنيسة، كانت هناك قواعد لكل شيء، بداية من أصول ممارسة الطقوس الدينية، إلى ما يتعلق بالطعام والشراب، إلى الزواج والجنس، حقًّا، كانت مسيحية العصور الوسطى تمثل منظومةً كاملةً للحياة.

- اعتمدت قدرة الكنيسة في إملاء وفرض قواعدها الجامدة، على تسليم الناس الكامل بمعتقدات الكنيسة، غير القابلة للتساؤل، وشيوع الاعتقاد بأن رفض أو نقض ولو واحدة من معتقدات الكنيسة –سواء عن طريق العلم أو غيره– قد يترتب عليه انهيار شامل وتفتت كامل للبنية الاجتماعية ونظامها، بناءً على ذلك، أصبح العلم والتفكير الحر يمثلان تهديدًا خطيرًا وكان لا بد من تحريمه.
- إن فترة قمع الرأي العلمي بواسطة الكنيسة كانت من أحلك عصور التاريخ البشري، كما أن مبدأ كروية الأرض وبالتالي وجود نقاط متقابلة على سطح الكرة الأرضية لم يكن مقبولًا في الفكر الديني، وقد هوجمت الفكرة بشدة من رجال الدين الذين تساءلوا باستنكار: "هل يوجد من فقد التمييز والإدراك إلى هذا الحد، حتى يُعتقد بأن المحاصيل والأشجار تنمو لأسفل وبأن الأمطار والجليد يسقطان إلى أعلى؟".

إن الجدل بين العلم والأصولية المسيحية، مازال محتدمًا حتى اليوم، ولعل ذلك يتمثل بوضوح في ذلك التيار المعروف باسم "مجموعة الخلق"، الذي وُلد التيار في الثمانينيات، ومازال –في كثير من الولايات الأمريكية– يمثل قوة مؤثرة حتى اليوم، وأنصار هذا التيار، يؤمنون بأن كل الحياة في الكون، بدأت من العدم، منذ ستة آلاف سنة فقط، وفي سبعة أيام بالتحديد، وذلك تمشيًا مع حرفية النص كما جاء في الفصول الأولى من سفر التكوين، وهم يهاجمون كل ركن في علم الفلك أو الجيولوجيا، يشير بما يتعارض مع وضع حد لعمر الأرض يزيد عن 10.000 سنة، كما يرفضون أي تقدير للأعمار مبني على استخدام الكربون المشع، وعلى أية حال فإن نظرية داروين تحظى لديهم بأكبر قدر من الذم والهجاء.

وقد تمخض الصراع بين العلم والدين عن انتصار الفكر وتقلص السلطة الكنسية، واستقلال العلم عن الدين، وقد قاد الانطلاقة الفكرية في القرنين السابع عشر، والثامن عشر، العديد من المفكرين التنويرين، ومنهم: جون لوك، وديفيد هيوم، ونيوتن في إنجلترا، وفولتير، وكانط، وغيرهم، وأصبح مفهوم التنوير يمثل حركة عقلية أوروبية، رأت في العقل، الوجود الحقيقي للإنسان، وسعت إلى تحرير الحضارة من الوصاية الكنسية، والنزعات الغيبية، والخرافات، ودعت إلى التسامح، وآمنت بتقدم الإنسانية عن طريق تشكيل الحياة على أسس طبيعية وعقلية.

ومن الغريب أن الكنيسة بعد قرون من حكمها ضد جاليليو أصدرت عدة قرارات تراجعت فيها عن موقفها السابق بدءًا من سنة 1749م، حيث وافق البابا بندكت الرابع عشر على طباعة كتب جاليليو التي كانت الكنيسة قد منعت طباعتها وقراءتها سنة 1632م، وفي التاسع من مايو 1983، أصدر البابا يوحنا الثاني، ما يفيد بالتأكيد، بأنه أول اعتذار رسمي لجاليليو، وقد جاء الاعتذار متأخرا 350 عامًا، وفي عام 2008م تم وضع تمثال لجاليليو داخل جدران الفاتيكان.

الإنجيليون والنهضة العلمية

بمرور الوقت فقد علم اللاهوت مكانته كسيد للعلوم، وانفتح الباب وقتئذٍ لكل أنواع التأمل في علوم الفلك والرياضيات والكيمياء والأحياء والطبيعة والجيولوجيا وعلم وظائف الأعضاء، وتستطيع الكنيسة (الكاثوليكية والبروتستانتية على السواء) أن تحتج، أما بالنسبة للعلماء والباحثين فقد أصبح الفكر الحر هو السائد يومئذ.

امتد الصراع بين العلم والدين، على مدى القرون الثلاثة التالية للإصلاح، ولايزال هذا الصراع مستمرًّا حتى اليوم، ولا يجب أن نستهين بمغزى هذا الصراع، فلقد مس كل كنيسة بدرجات متفاوتة وغَيَّر جذريًّا مسار الدراسات اللاهوتية، وما كان يمكن أن يجول بخاطر أكثر أصحاب النزعة الإنسانية تطرفًا مثل نيقولا كوزا (1401- 1464)، أن يبحث في حقيقة "الله" نفسه، ولكن ما دام مفكرو هذه الحقبة التي ندعوها (عصر التنوير) قد تجاسروا على الانسلاخ عن الكنيسة وتعاليمها، فإن أسئلة جديدة قد أثيرت حول أصل وطبيعة كل الكائنات، وتفتحت ميادين جديدة للمعرفة لم توجد في الكتاب المقدس، وبدت أحيانًا وكأنها متناقضة، ولم تواجه الكنيسة مثل هذه التحديات من قبل، وعندما واجهتها اختبرت تغييرات أساسية من داخلها، فتارة كانت تُنكر مكان العلم في الدين بصورة قاطعة كما فعلت مع جاليليو، وتارة كانت تُكيف نفسها للنظرية العلمية بطرق متعددة. وكم ترك كثيرون الكنيسة معتبرين معتقداتها غير علمية، وظهرت طوائف جديدة وضعت أسسًا لعقيدتها أكثر تمشيًا مع العلم مثل "الموحدين" والخلاصيين القائلين بخلاص الجميع، لكن كل كنيسة في العالم المسيحي تأثرت على نحو ما بالتنوير وثورة الفكر التي تجمعت عنه، فبعد كوبرنيكوس وجاليليو أصبح العالم قادرًا على تكوين رؤية علمية كونية، تَحُبُّ أية رؤية أخرى، ومعنى ذلك أنه إذا ما تعارض العلم مع الدين، فعلى الدين أن يترك مكانه للعلم.

ولقد وجدت الحركةُ الإنجيليَّةُ أن حرية الفكر وحرية الضمير واحترام البحث العلمي وغيره، بل وتشجيعه، لا يمكن التضحية بها مهما كلف الأمر، فلقد جاء في شمال أوروبا علماء (إنجيليون) كثيرون كانت لهم إسهامات مهمة في مجال العلوم الطبيعية، ومنهم من تميز بالربط بين اكتشافاتهم والنصوص الكتابية بصورة أو بأخرى اقتناعًا منهم بمبادئ الإصلاح، نذكر منهم روبرت بويل (1627م- 1691م). الكيميائي المشهور الذي كان مهتمًّا بالعلم والفكر اللاهوتي معًا، وإن كان قد أخضع العلم أحيانًا لعلم اللاهوت! اعتبر بويل أن الله مؤلف كتاب الطبيعة وكذلك الكتب المقدسة، وأكد أن الكتابين المنفصلين يرتبط كلٌّ منهما بالآخر دون تعارض. وبمرور السنين أصبح واضحًا أن الكتاب المقدس لم يُقصد به أن يكون مرجعًا علميًّا أو ما إلى ذلك، فهدفه الواضح هو أن يُعلن معاملات الله مع البشر، وطريق الخلاص من الخطية والعلاقة الوثيقة مع الله. وعلى الرغم من هذا، قال علماء الكتاب المقدس لقرون طويلة، بأن العالم تكوَّن في ستة أيام، واستنادًا لبعض نصوص الكتاب المقدس -ولا سيما الأجيال التي جاء ذكرها في سفر التكوين- حددوا عمر العالم بستة آلاف سنة، وجاء علماء الجيولوجيا بدراساتهم لتكوين الصخور وغير ذلك ليقولوا إن العالم تكوَّن في ملايين السنين، فبدأ الحديث عن أن اليوم يعني حقبة طويلة من الزمن. ثم جاء موضوع شَغَل الفكر الإنجيلي بصورة كبيرة جدًّا، ذلك عندما نشر تشارلس داروين (1809- 1882م) كتاب أصل الأجناس سنة 1859م، ومن المعلوم تاريخيًّا أن هذا الكتاب والنظرية التي قدمها داروين أثارت مناقشات حادة بشأن العلاقة بين الدين والعلم أكثر من أي كتابٍ آخر في العصر الحديث، وكانت بداية لعصر جديد من الناحية الدينية وتاريخ الحضارة. ومن السهل أن نلاحظ لماذا أثار كتاب داروين ضجةً كبيرةً في العالم المسيحي والإنجيلي، بصفة خاصة، لمكانة الكتاب المقدس عنده، وتحققت المخاوف عندما نشر داروين كتابه

الثاني "اعتدال الإنسان" سنة1871م، والذي استند فيه إلى اكتشاف آثار جيولوجية لكائنات حية، وملاحظات ومشاهدات أثناء رحلة قام بها إلى مناطق من أمريكا الجنوبية وبعض المواقع في المحيط الهادي في جنوب شرق آسيا.

إن الحديث عن أن الإنسان جاء نتيجة تطور من حياة أدنى، يتعارض تمامًا مع قصة الخليقة التي يقدمها الكتاب المقدس، كما أنه يحط من كرامة الإنسان ومكانته كسيد الخليقة، والحديث عن تطور اقتضى الآلاف الكثيرة من السنين يتعارض مع الصورة التي يقدمها سفر التكوين للقارئ العادي، وبذلك رأى الإنجيليون الذين كانوا صفوة المفكرين أن نظرية داروين تتعارض مع عقيدة الخلق والتعليم عن السقوط وعمل الفداء. لكن اللاهوتي المشيخي البارز تشارلس هودج أستاذ اللاهوت بكلية برنستون اللاهوتية في النصف الثاني من القرن التاسع عشر ميَّز بين الحقائق التي يقدمها الكتاب المقدس باعتبارها من الله ونظريات تفسير كلمات الكتاب التي يقدمها البشر، وفسر كلمة (اليوم) الذي يتحدث فيه سفر التكوين عن الخليقة بأنه تعبير عن حقبة زمنية. وباختصار رأى هودج أن المشكلة مع داروين ليست أنه لم يعترف بوجود خالق، بل أنه اعتبر أن دور الخالق انتهى بإتمام الخليقة، وترك الأمر للتطور الطبيعي، الذي يخضع لمبدأ التكيف البيئي والبقاء للأصلح وحده في تعارض مع تعليم الكتاب المقدس. جاء من بعد تشارلس هودج ابنه أرشبولد هودج، ولاهوتي برنستون المشهور ب. وارفيلد، ولم يجدا مشكلة في التوفيق بين مبدأ التطور وتعليم الكتاب المقدس، باعتبار أن ما نادى به التطور هو نظرية يمكننا قبولها. "كما" أن جيمس مجوش، الذي كان رئيسًا لجامعة برنستون في النصف الثاني من القرن التاسع عشر، بعد أن رفض نظرية داروين عاد ليقول بأن الكنيسة لها مجالها الذي ينبغي ألا يتدخل في مجال العلم. كما أن هنري درامند العالم والواعظ المشهور، صديق مودي، تبنى إلى حدٍّ ما نظرية التطور، وقال إن هناك خطة في عالم الطبيعة كما إن هناك خطةً في العالم الروحي، ويجب ألا نخلط بينهما. وظهر سنة 1922م كتاب مهم يقدم صورة عن موقف الفكر الإنجيلي المشيخي من الداروينية، ويتناول أسباب رفض نظرية التطور، ويقارن بين رفض نظرية كوبرنيكوس ثم قبولها، ورفض نظرية داروين، ليقدم بالتفصيل ما يؤكد أن نظرية التطور تتمشى مع الفكر المشيخي، ويقدم أمثلة كثيرة بصفة خاصة من قادة الكنيسة المشيخية في اسكتلندا، مؤكدًا أن الكتاب المقدس لم يُقصد به أن يكون مرجعًا علميًّا، فهو لا يحدد لنا ما يجب أن نؤمن به في أمور الفلك أو الجيولوجيا أو الدراسات المختلفة بشأن النبات أو الحيوان، وأن الكتاب المقدس يحدثنا عن أن الله هو الخالق وأن الخليقة تعتمد عليه، وأن سلطانه يشملها جميعًا وعنايته ترعاها، بينما لا يقدم لنا تفصيلات علمية. ويقول الكتاب في أحد ملاحقه إن الكنيسة يجب أن تتجنب فرض نظريات علمية بعينها يلتزم بها من تتم رسامتهم للتفرغ لخدمتها. وإيمانًا بالتدرج نصت مادة 5 من دستور الكنيسة الإنجيلية على "نؤمن بأن الله في أدوار متدرجة كون ونظم هذا العالم الذي نسكنه معطيًا حياة لكل خلقه".